مكانة الكتاب الجامعي الورقي في عالم متغير

د. غالب خليل فرحات

المشكلة التي نريد الإضاءة عليها في هذه الدراسة، تكمن في مسألة إلغاء الكتاب الجامعي المطبوع[١] وشطبه من المعادلة الجامعية لمصلحة الكتاب الالكتروني[٢].

السبب المعلن، هو ظهور الثورة الرقمية التي فرضت في وقتنا الحاضر، الكلمة الالكترونية، والكتابة الرقمية، على حساب ذلك الاختراع العظيم للبشرية جمعاء: الكتابة العادية التي نعرفها والكتاب الورقي المطبوع.

السبب غير المعلن برأينا لهذا الإلغاء، هو أن

(١) كلام د.هاني هلال، وزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي، حين قال «تقرر الغاء الكتاب الجامعي المطبوع...»، مجلة اليوم السابع، تاريخ ١٨ ابريل،٢٠١٠، القاهرة.

(٢) الكتاب الالكتروني E.Book مصطلح يستخدم لوصف نص مشابه للكتاب الورقي، يمكن عرضه على شاشة الحاسوب وهو غير محدد بالقيود المادية (كالورق والتجليد والحجم)، يختزن كميات ضخمة من البيانات في شكل نصي، فضلا عن الصورة الرقمية والفيديو والكلمة المنطوقة والموسيقى وغيرها من الأحداث التي تكمل النص، وتقل كلفة استنساخ القرص الضوئي مقارنة مع كلفة الكتاب الورقي...أيضا يتمتع الكتاب الالكتروني بسرعة هائلة من حيث التفاعلية والقابلية للتحديث المستمر... (بالاضافة لميزات كثيرة سنوردها في القسم الثاني من هذه الدراسة) مما يجعل من المؤكد تزايد الطلب على الكتاب الالكتروني. راجع: محمد فتحي عبد الهادي، النشر الالكتروني وتأثيره على المكنيات والمعلومات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ص٦٢.

بينما الكتاب المطبوع يعرف على الوجه الآتي:

"Est un assemblage de feuilles imprimées et réunies dans un volume relié et broché"

أي ما ترجمته التقريبية: هو مجموعة من الأوراق المطبوعة والمجلدة.

"Un ensemble imprimé, illustré ou non publié sous un titre, ayant un objet la reproduction d'un œuvre de l'esprit d'un ou plusieurs auteurs en vue de l'enseignement, de la diffusion, de la pensée et de la culture"

«الكتاب هو مجموعة مطبوعة، أكان مصورا أم لا، وهو ينشر تحت عنوان محدد غايته انتاج عمل ابداعي لكاتب واحد أو لكتّاب عدة، وذلك بهدف التعليم أو لنشر الفكر والثقافة»

راجع: اسكندر حبش، «بعد خمسين سنة يصبح الكتاب الورقي معروضا في المتحف»، جريدة السفير اللبنانية، تاريخ ٢٤/ ٩/ ٢٠١٠، بيروت ـ لبنان.

الكتاب الورقي أصبح «مقبرة التعليم العالي» بعد أن غاب العقل والفكر في التأليف، وحل محله، النقل والنسخ بهدف تحقيق الكسب السريع.

بالواقع، اذا كانت بعض الاختصاصات الجامعية اليوم وبفضل ثورة المعلومات المشار اليها، لا تحتاج ولا ترتكز في أدائها الأكاديمي على الكتاب الورقي، نرى البعض الآخر ما زال يحتاج الى الكتاب الجامعي الورقي الذي يعتبر ركيزة أساسية في توفير الحد الأدنى من المعارف والمعلومات المطلوبة، وأحد المقومات الجوهرية في العملية التعليمية.

هذه الحقيقة، (إلغاء من جهة، وحاجة الى الكتاب الجامعي الورقي من جهة ثانية) لا تراها اليوم الهيئات الجامعية المعنية مباشرة بالأمر بالمنظار نفسه. ومما ساعد على الاختلاف بالرؤية، بل نقول سوء الرؤية هذه، هو ثورة المعلومات وتطور وسائل الاتصالات لا سيما الانترنت، التي جعلت الكون كله قرية صغيرة بمتناول الجميع، وأتاحت، لا بل وسمحت، بنوع خاص للطالب وللاستاذ، على حد سواء، من الاطلاع على أحدث العلوم وأعقدها بكبسة زر. نضيف الى ذلك، ان هناك دراسات أميركية عديدة وصفت سنة بأنها مفصلية، حيث سيشهد العالم الانتقال من قراءة الكلمة الورقية الى قراءة الكلمة الرقمية[٣] .

من هنا يمكننا التساؤل، هل انتهى فعلاً عصر الكتاب الجامعي الورقي؟ هل انتهى عصر أوعية المعرفة وخزائن الثقافة الانسانية على مر التاريخ؟ هل جاء الوقت المناسب للتخلي عن الكتاب الجامعي الورقي، بعد أن كثرت عيوبه وتعددت مشاكله؟ ما هو تأثير عصر التكنولوجيا والثورة المعلوماتية والمعرفية عليه؟ هل ان الأمر يتطلب رؤية استراتيجية كاملة من قبل الهيئات الجامعية، أو ليست الجامعة هي التي تحتل قمة السلّم التعليمي، وهي التي تشكل أهم المؤسسات العلمية والتربوية في المجتمع، والتي يمكنها بالتالي أن تقود حركة التقدم والتنمية؟ هل هناك تعايش ممكن، أم صراع إلغاء ما بين الكتابين؟

يمكننا إيجاز كل هذه التساؤلات بالعنوان الذي اخترناه لدراستنا هذه، ما هي مكانة الكتاب الجامعي الورقي في عالم متغير، متبعين التقسيم المنهجي التالي:

القسم الأول: ثبات وضرورة الكتاب الجامعي الورقي.

القسم الثاني: الكتاب الجامعي الورقي وتحديات ثورة المعلوماتية.

القسم الأول:
ثبات وضرورة الكتاب الجامعي الورقي.

ان ثبات وضرورة، لا بل صمود الكتاب الجامعي الورقي، مسألة موضوعة على بساط البحث والتداول بفعل التطور التكنولوجي وثورة المعلومات.

ومن البديهي القول، ان علم القانون، على سبيل المثال، ليس علما نظريا فحسب، بل يمتد ليشمل التقنيات المهنية والعملية لكافة المهن الحقوقية. فثورة المعلومات، وما تزخر به من معارف وفيرة، تنفع رجال القانون والمهن القانونية، لكنها لا تكوّن بالنسبة لهم معرفة علمية ومهنية عميقة. فهذه الأخيرة، تستلزم اكتساب خبرة نظرية، وعقلا نقديا، مرتكزا على التحليل الهادف، وهي الأمور التي لا يمكن تكوينها الا عبر القراءة المتبصرة، وبالطريقة التقليدية، فهل يصح ذلك بالطريقة الالكترونية؟

(٣) كلود صليبا، «الانترنت يلتهم أوراق الكتاب» و «خير جليس في الأنام... حاسوب»، جريدة المستقبل، بيروت، الجمعة١٥ كانون الثاني ٢٠١٠، العدد ٢٥٣٨، ص١١.

أليس من الأجدى بنا أن نركز اهتمامنا وجهدنا في الحفاظ على علاقتنا بالقراءة، بغض النظر عن الطريقة المعتمدة؟ والكتب، سواء أكانت ورقية أم الكترونية، ألا تشكل وسائط معرفية مشهوداً لها؟ أم أن هناك تمييزاً لبعض الاختصاصات؟ الكتاب الجامعي الورقي ركيزة ودليل أساسي للدراسة في بعض الاختصاصات **(المبحث الأول)**.

كذلك شكل الكتاب الورقي ولم يزل، أحد أهم مقومات العملية التعليمية، فهو المصدر الرئيس للطالب في استيعاب وفهم المعارف المختلفة. فما هي أهمية ودور الكتاب الجامعي الورقي في علم القانون؟ **(المبحث الثاني)** في نفس السياق، من المفيد القول بأن الجامعات، هي التي تصنع الانسان الباحث المبدع، وتعدّ الكوادر البشرية، لمختلف الحقول والقطاعات المهنية والعلمية.. فهل ستبقى الجامعات بأشكالها التقليدية؟ أم ستتحول عاجلا أو آجلا الى التعليم الالكتروني؟ وكيف ستكون آلية التدريس فيها؟ وهل أمام هذه القفزة التكنولوجية النوعية سنستطيع المحافظة على مقولة أكتب واقرأ، أم سنشجع مقولة أنقر وتصفح؟

سبل الارتقاء بالكتاب الجامعي الورقي **(المبحث الثالث)**

المبحث الأول:
الكتاب الجامعي الورقي ركيزة ودليل مهم للدراسة في بعض المجالات.

لقد شكل الكتاب الجامعي الورقي، في علم القانون، على سبيل المثال لا الحصر، المصدر الرئيس للطالب في استيعاب وفهم هذا العلم. فالكتاب الجامعي الورقي، يعد ركنا أساسيا في تأمين المعارف الأساسية في هذا العلم، لأنه يتضمن المواضيع التي تخص الفصل الجامعي ومفرداتها، ويمثل الدليل الذي يوفر للطالب الوقت، والجهد، والسبل الآيلة لحصوله على العلوم القانونية المطلوبة. ان التجارب العلمية أثبتت، وعلى مرّ السنين، ان الكتاب الجامعي الورقي، هو وسيلة ضرورية يلجأ اليها الطالب من الناحيتين النظرية والعملية.

لكن السؤال الذي يطرح في هذا الإطار، هو، هل الاستمرار بالرجوع الى الكتاب الجامعي الورقي أمر ثابت؟ وهل له القدرة على التكيف مع ثورة المعلومات والتكنولوجيا التي نعيش تأثيراتها في هذه الأيام؟ ثبات وتأقلم الكتاب الجامعي الورقي في عملية التدريس **(أولاً)**. بمقدورنا أيضا التأكيد على انه بالنسبة له، هناك الكثير من الاعتبارات اضافة الى انه بالنسبة للطالب المعني الأساسي بالعملية التعليمية، هناك الكثير من الاعتبارات التي تجعله يلجأ الى الكتاب الجامعي الورقي، وكتاب الأستاذ تحديداً **(ثانياً)**.

أولاً: ثبات وتأقلم الكتاب الجامعي الورقي في عملية التدريس:

المعطيات والوقائع التاريخية المتعلقة بموضوع الدراسة هذه تؤكد لنا أن الكتاب الجامعي الورقي، ثابت، تدعم صموده وحضوره الكتابة، سيما بعد اكتشاف الورق ولغاية عصرنا الالكتروني الحالي. فالورق يملك رمزية تاريخية قل نظيرها، لكونه يحمل وحمل في ثناياه قصة الحضارة الانسانية وتاريخها.

فثورة الكتاب، بدأت مع اكتشاف الورق، الذي يعتبر أهم وسيلة للتدوين في التاريخ البشري[٤]. بينما الكتابة عرفت وتطورت حتى

(٤) لكن هذا لا يعني ان القواعد القانونية مثلا قد نشأت ووجدت مع ظهور الكتابة. فقبل اكتشاف الورق عملت الشعوب والحضارات القديمة على تدوين عاداتها وتقاليدها العرفية في نصوص مكتوبة، أدت الى انتشارها وتطورها وحفظها من الضياع عبر التاريخ =

قبل اكتشافه (أ). وعندما اكتشف الانسان الورق وخصائصه، أدّى ذلك الى تطور من نوع آخر وأصبح بذلك دعامة الكتاب الحقيقية (ب)، غير أن أهل الكتاب والكتابة كانت لهم مخاوف حقيقية عند ظهور الاكتشافات الحديثة في عالم النشر(ج) والتي اعتقدوا انها ستقلل من أهمية الكتاب الورقي، الا أن الواقع المعاش أثبت صموده في مواجهة المنافسة الشديدة له من الكتاب الالكتروني (د).

أ ـ تطور الكتابة قبل اكتشاف الورق:

من نافل القول، ان الكتابة مرت بمراحل مختلفة عبر العصور، فهي أخذت في بادئ الأمر شكل نقوش على جدران المعابد والمقابر، ثم تطور الأمر، فظهرت الكتابة على لحاء الشجر،الأحجار، أعواد البامبو وسعف النخيل، ثم أيضا، تطور الأمر، حين ظهرت مواد وأشياء يكتب عليها بسهولة أكثر كالألواح الطبيعية والألواح الخشبية والحرير... الى أن توصلت الحضارات والشعوب الى اكتشاف ورق البردى والرق، اللذين شكلا قفزة هامة في تطور الكتابة. الا أنه، مع ذلك، كان من الصعب تجميع عدد كبير من الأوراق لتأخذ شكل كتاب واحد، فكان الحل باعتماد شكل اللفافات، الى أن اكتشف الورق وأصبح الدعامة الحقيقية للكتاب.

ب ـ اكتشاف الورق: دعامة الكتاب الحقيقية.

ظهرت صناعة الورق، في الصين، وانتشرت في جميع أنحاء المعمورة بشكل سريع. ممّا أدّى الى الحدّ من التعامل بورق البردى والرق، ومن ثم الى الاستغناءعنهما ليحل محلهما الورق الذي ما زال يستخدم ولغاية اليوم!! وعلى نطاق واسع وفي مختلف الحقول والمجالات العلمية، الأدبية والأكاديمية.

وقد تعزز اكتشاف الورق بظهور الطباعة(٥) التي أعطت دفعاً هائلاً للكتاب جعلته «أبسط وأجمل وأعظم» اختراع على مر العصور.

بعد اختراع الطباعة وانتشارها، بدأت الكتب تنشر بشكل سريع وأصبح الكتاب بالتالي «حقاً متاحاً وملكاً ميسوراً، بعد أن كان، نادراً ومحصوراً و سراً من أسرار الحكماء...»

ان الخوف على الكتاب الورقي تجلى مع ظهور الاكتشافات الجديدة، وكان التساؤل المقلق لأهل العلم والثقافة آنذاك، هل هناك من تأثيرات لهذه الاكتشافات الحديثة على الكتاب الورقي؟

ج ـ ظهور الاكتشافات الحديثة وتأثيراتها على الكتاب الورقي.

ان ظهور الاكتشافات الحديثة، الراديو، التلفزيون والسينما.. كان مبعثا للقلق على مصير الكتاب الورقي عند الكثير من رجال العلم والمعرفة(٦).. لكن الكتاب لم يسقط بل استمر بالرغم من ثورة المعلومات هذه. وذلك برأينا، يعود الى عدة عوامل تتعلق بطبيعته وتكوينه، فهو يتميز:

١ ـ ببساطته، عملانيته، وتكيفه مع مختلف الظروف والأمكنة(٧).

٢ ـ وسيلة غير معقدة مقارنة بالوسائل

= والعصور المختلفة. فبفضل الكتابة والتدوين ندرس اليوم، وعلى سبيل المثال في جامعاتنا مادة تاريخ القوانين وتطوره. راجع، علي جعفروغالب فرحات، تاريخ القوانين، دار النشر غير مذكور، ٢٠١١، بيروت، صفحة ٥ وما يليها.

(٥) على يد جو تنبرغ الالماني عام١٤٥٠، نجد انه ان كانت معظم الكتب تدون بخط اليد سواء بطريقة التأليف أو الاملاء مع ما يعتمد هاتين الطريقتين من أخطاء في الشكل والمضمون. ولعل من المفيد والمضحك في آن، أن نؤكد ان هذا المخترع العبقري قد مات فقيرا.. في الوقت الذي اغتنى غيره بفضل اختراعه اغتناء فاحشا.

(٦) حالة القلق هذه كانت على مصير الكتاب الورقي وقدرته على الصمود أمام هذه الوسائل التي تميزت عنه بالكثير من المميزات ليس أقلها دمج الصوت بالصورة، البث الحي لمختلف الوقائع، الخ....

(٧) حمله في الصحراء، الجيب، الطائرة، الغابة، في السرير، وفي الجامعة...

التكنولوجية المتطورة، فهو لا يتطلب سوى شيئا واحدا، معرفة القراءة.

٣ ـ انه في جهوزية دائمة، ينتظر رغبة القارئ ويلبيها على الفور أينما وجد هذا الأخير.

٤ ـ يساعد القارئ في التمعن في النص والعودة الى قراءته مرات عدة، مستجلباً مكنوناته وأسراره.

هذه العوامل أدّت اذاً الى الحدّ من تأثيرات كل الاختراعات الحديثة (التي عرفتها البشرية عليه)، وأدّت الى صموده ومواجهته الشديدة للمنافسة...

د ـ صمود الكتاب الورقي ومواجهته الشديدة للمنافسة .

باعتقادنا، ان صمود الكتاب الورقي ارتكز على مبدأين اثنين:

ـ مبدأ التخصص والخيارات (د ـ ١).

ـ مبدأ اختلاف حاجات الانسان وتبدلها وفقاً للظروف (د ـ ٢).

د ـ أ مبدأ التخصص والخيارات.

وفقاً لمقتضيات هذا المبدأ، لا يمكن لأي اختراع أو اكتشاف علمي جديد أن يلغي بالمطلق اختراعا قديما، وانما يأتي ليشبع حاجات معينة عبر استخدامات جديدة. فالتلفاز لم يلغ الراديو، والانترنت لم يلغ التلفاز. بل ظل لكل من هذه الوسائل التكنولوجية استخداماتها الخاصة وفق ما تقتضيه الظروف المتعلقة بالزمان والمكان والهدف الذي يتوخاه المتلقي من هذه الوسائل. هذا المبدأ يتلاقى مع مبدأ آخر ويتممه، ألا وهو مبدأ اختلاف حاجات الانسان وتبدّلها.

د ـ ٢ ـ مبدأ اختلاف حاجات الانسان وتبدلها

من المسلم به ان حاجات الانسان تتغير وتتبدل بفعل التطورات والتقدم العلمي. فلكل زمان حاجاته والتي تبرز معها اكتشافات واختراعات تناسبها. تأسيسا على ذلك، فإننا مع كل اختراع علمي جديد نبحث عن كيفية استخدامه وإشباع حاجتنا منه[٨]. فالسيارات مثلا لم تستبدل العربات والأحصنة، انما أتى تصنيعها لغايات عملية تتجاوز غايات استخدام العربات التي ظلّت ضمن دائرة الاستخدام وفق ما تقتضيه الحاجة. وهذا ما يطلق عليه تسمية مبدأ اختلاف حاجات الانسان وتبدلها[٩].

يمكننا ان نستنتج مما تقدم ان ثبات الكتاب الورقي وصموده لغاية اليوم أمر مسلم به، وبالرغم من المنافسة الشديدة التي يتعرض لها من نظيره الكتاب الالكتروني[١٠].

مقاومة الكتاب الجامعي الورقي، ما زالت تستند على اصرار الأساتذة والاختصاصيين في المجالات الأكاديمية، في المضي قدماً بعملية التأليف والبحث العلمي بالرغم من المصاعب العديدة والمنافسة القوية للوسائل التعليمية الالكترونية، وكذلك بفعل رغبة الطالب الجامعي في السعي الدائم للحصول على الكتاب، باعتباره الأداة والمصدر الأهم في تلقّي المعرفة بنوعيها النظري والعملي.

---

(٨) هناك العديد من الاختراعات التكنولوجية التي لم تؤد الى انقراض ما سبقها من اختراعات، فالسيارة مثلا اسرع من الدراجة، ولكنها لم تتسبب في انقراض الدراجة. وهذا يعني انه في تاريخ الثقافة لم يحدث أن قام شيء ما بقتل شيء آخر، ولكن كان هناك شيء يغير بصورة جذرية شيئا آخر. راجع: مجدي شلبي، الكتاب الالكتروني بين المزايا والعيوب (مستقبل العلاقة بين الكتاب الورقي والكتاب الالكتروني)، مجلة دنيا الرأي، ٢٠٠٩/٩/٢٣، فلسطين.

(٩) وهو تطور طبيعي، فلقد تطورت الكتابة والقراءة من الأحجار والألواح الى الكتابة على العظام والجلود ثم الورق وأخيرا الكمبيوتر.

(١٠) راجع القسم الثاني من هذه الدراسة ص...

فما هي الأسباب التي تدفع الطالب الى التمسك بالكتاب الجامعي الورقي؟

ثانيا: أسباب لجوء الطالب الى الكتاب الجامعي الورقي:

ان لجوء الطالب الى الكتاب الجامعي الورقي له أسباب عديدة منها، توفيره للكثير من المعارف والمعلومات، العامة منها والخاصة.

لجهة الأسباب العامة، فهي تتمحور برأينا حول توفير الكتاب للكثير من المعارف والمعلومات على اختلافها، ولتخفيفه أعباء البحث والتنقيب، وكذلك الضغوط النفسية عن كاهل الطلاب والتي تواكب عادة أيامهم الدراسية الجامعية.

أما لجهة الأسباب الخاصة، يمكننا ذكر الأمور التالية:

- كون الكتاب احد أهم مقومات العملية التدريسية، بمعنى أن المادة تكمن فيه. فعلى سبيل المثال وفي المجال الحقوقي، يجب دائما الانطلاق من المصدر الأساسي ومن ثم الاحتياطي للقاعدة القانونية، أي ان العودة تكون بشكل رئيس للنص القانوني، والا الى بقية المصادر(١١).

- تناول الكتاب بالشرح للمقرر المعتمد للفصل الجامعي، فهو حديث، جديد وملائم للبرنامج الموضوع من قبل الجامعة.

- تضمن الكتاب الجامعي تدرجاً علمياً للمواضيع الواردة فيه، ووفقاً لمصادرها، أهميتها وللمستجد منها. فمؤلفه أستاذ يتمتع بالمعرفة والخبرة في هذا المضمار(١٢).

- اعتماد الطالب الكتاب كدليل لأنه يوفر له الكثير من عناء البحث والتنقيب عن المعلومات والمعارف الواجب عليه اكتشافها وفهمها.

- اعتبار الطالب ان كتاب الأستاذ في متناول اليد، وهو وضع بالأساس من أجله وبسعر رمزي في أغلب الأحيان.

- اختصاره للكثير من الأعباء لجهة الوقت والمال وخاصة اللغات الأجنبية، اذ ان الطالب لا يمكنه دائما الرجوع الى مصادر ومراجع فقهية أجنبية تتصف غالبا بأنها بعيدة المنال بالنسبة له، وغالية الثمن ان وجدت، سيما وانها تكون عادة مذكورة في الكتاب، بشكل مختصر وملخص، وتتيح بالتالي له معرفة مضمونها بسهولة وبلغته.

- يضمن الأستاذ كتابه عادة المصطلحات والمفردات التي تتطابق مع المقرر.

- شمول الكتاب، بالاضافة الى المعرفة النظرية، منهجية بحث تعتمد الأسس الأكاديمية والعلمية في الكتابة.

يتبين لنا من كل ذلك، ان الكتاب الجامعي الورقي له دور وأهمية علمية كبيرة.

المبحث الثاني:
أهمية ودور الكتاب الجامعي في علم القانون

للكتاب الجامعي أهمية ودور كبيران. فمن حيث المضمون هو مصدر للمعلومة **(أولا)**، ومن حيث الشكل هو مصدر مهم للتدريبات المنهجية والمهنية **(ثانيا)**.

---

(١١) سامي منصور وعكاشة محمد عبد العال، دروس في المنهجية القانونية، الدار الجامعية، طبعة٢٠٠٠، بيروت، ص١٧.

(١٢) لكن يجب الملاحظة هنا ان اختصار الدراسة على المقرر والكتاب الجامعي والوقوف عندها فقط، وبالرغم من انه شرط ضروري الا انه غير كاف اذ لا بد من تعميق للمواضيع الواردة فيه عن طريق العودة الى مراجع مشابهة والمكوث في المكتبات، سامي منصور وعكاشة محمد عبد العال، مرجع سابق، طبعة ٢٠٠٠، ص١٨.

أولا: الكتاب في المضمون: مصدر مهم للمعلومة

لا بد لنا من الكتاب الجامعي الورقي، نظرا لاحتوائه على المعلومة، كما سبق ذكره، والتي يعمل الطالب على تعميقها واكتسابها، باللجوء الى العديد من المراجع والمصادر (اذا أمكنه ذلك) القديمة منها والحديثة.. اذ ان ربط الماضي بالحاضر واظهار أبعاد الموضوع المعالج في المستقبل له دلالته[١٣].

فالكتاب الجامعي الورقي، وكما سبق ذكره، يتناول في محتواه الاشارة الى أغلب هذه المصادر والمراجع، آخذا منها ما يعزز نظريته العلمية التي يتناولها بالمعالجة. ففي الميدان القانوني وعلى سبيل الذكر لا الحصر، ان طالب الحقوق، وأمام هذا السيل الجارف والمتراكم من المراجع والمصادر الذي لا ينتهي ولا يحد، ليس في الفقه العربي وحسب، وانما أيضا في الفقه الغربي[١٤] لا يمكنه الا العودة لكتاب الأستاذ الذي يؤمن له الحد الأدنى من المعلومات القانونية المطلوبة، ويزيح عنه هذا الشعور بالعجز والاحباط، الذي ينتابه جراء هذا الكم الهائل منها.اضافة الى مضمون الكتاب، هنالك الشكل.

ثانيا: الكتاب في الشكل: مصدر مهم للتدريبات العملية والمنهجية.

للكتاب الجامعي الورقي أيضا أهميته العملية. فلا بد من تقديم العلوم النظرية بأساليب منهجية، توخياً للافادة المهنية والعلمية. اذ ان الجامعة كمؤسسة تعليمية كبرى، هي التي تؤمن للطالب التدريس من جهة، والبحث العلمي من جهة ثانية. وهذا يعني أن التدريس الجامعي لا يكون الا في اطار أسس علمية وبالتالي منهجية[١٥]. فالجامعة لها الدور الأول والأخير، لتحديد سبل الارتقاء بالكتاب الجامعي الورقي أو الالكتروني (فيما بعد) على حد سواء.

المبحث الثالث:
سبل الإرتقاء بالكتاب الجامعي الورقي:

ان الكتاب الجامعي الورقي، كغيره من الاكتشافات والاختراعات، يجب أن يخضع لتطوير وتحديث دائمين بحيث يصبح مواكبا للمتغيرات والتطورات المحيطة به.

فلهذا الكتاب الجامعي الورقي تعريف[١٦]، وله معايير لا بد من توفرها فيه **(أولا)**، ومؤسسات راعية تؤتمن على محتواه العلمي والمنهجي، والمتمتعة برأينا بدور أساسي في هذا المضمار. دورالهيئات الجامعية في تطوير الكتاب الجامعي الورقي **(ثانيا)**.

أولا: المعايير الواجب توفرها في الكتاب الجامعي.

ممّا لا ريب فيه، ان الكتاب الجامعي الورقي وعاء من أوعية المعرفة، يهدف الى اعطاء المعارف النظرية العلمية والعملية كما سبق بيانه. لذلك، هناك معايير محددة للكتاب يجب أن تتوفر فيه:

---

(١٣) بالواقع، ان ربط الماضي بالحاضر، واظهار أبعاد الموضوع المعالج بعد تحديد مصدره أو مصادره، هي من خصائص البحث القانوني. ففصل القانون عن مصدره معناه جعل القانون دون هوية. راجع، سامي منصور وعكاشة محمد عبد العال، مرجع سابق، طبعة ٢٠٠٠، ص١٢.

(١٤) سامي منصور وعكاشة محمد عبد العال، مرجع سابق، طبعة ٢٠٠٠، ص٢٧.

(١٥) هاني دويدار، منهج الدراسات التطبيقية في مجال علم القانون، الدار الجامعية، ١٩٨٨، بيروت ـ لبنان، ص٥.

(١٦) وليس كل كتاب جامعي يستحق هذا اللقب!

مضمونه: يشمل النواحي النظرية والعملية محددا مصطلحات الموضوع المستعملة فيه.

شروطه: أن يحتوي على خطة واضحة المعالم والأهداف وأن يكون متّصفا بالتسلسل المنطقي لجهة تبويب، توثيق وتنوع المعلومات والمصادر مع توضيح الغموض المحتمل في بعض المصطلحات بحواش موجزة.

دقة مصطلحات الكتاب: يقتضي استعمالها بحسب مفهومها ومعناها[١٧].

تحديثه: تتطلب بعض الكتب الجامعية التحديث الدائم في مادتها شكلا ومضمونا. فالطبعة الحديثة تكون عادة منقحة، ويضاف اليها ما استجد.

لغته: ينبغي أن تكون الكتب الجامعية قدوة لغيرها من الكتب لناحية سلامتها اللغوية والوضوح في العبارة والدقة في التعبير وقصر الجمل والايجاز.

توفر هذه المعايير في الكتاب الورقي لا يمنعنا من التساؤل عما اذا كان الكتاب الورقي سيتفق أم لا مع العصر الالكتروني؟ وهل هناك ثمة دور للهيئات الجامعية المختصة في تطوير الكتاب الجامعي الورقي؟

ثانيا: دور الادارات الجامعية في تطوير الكتاب الجامعي:

كما أشرنا، ان الدور الأساسي في تطوير الكتاب الجامعي يعود للجامعة بوصفها المرجع الرئيس والمنطقي في هذا الميدان. فهي الصرح العلمي الحقيقي والقيّم على «صناعة الكفاءات العالية» ورفد المجتمع بكافه قطاعاته بها، تعزيزا لانتاجيته ورقيه. فوظيفة الجامعة ليست علمية فقط، وانما لها وظيفة انمائية ثقافية وتربوية.

من هنا، فان التطوير يجب أن يكون عملية دائمة ومتجددة في الجامعات وعلى جميع الأصعدة ومنها ما يتعلق بالكتاب الجامعي. لكن المشكلة الحقيقية، هي ان هذا الأخير، يرتبط ارتباطا وثيقا بتطوير التعليم الجامعي نفسه، ومن ورائه التعليم العام بمجمله وبكافة مراحله.

فالتعليم الحالي، وفي ظل التطورات التكنولوجية، لم يعد جامدا، بل أصبح يتميز بديناميكية شديدة، اذ ان المادة العلمية أصبحت متاحة وبجودة عالية لا تتوافر على الاطلاق في الكتاب الجامعي التقليدي.

فهل نُبقي على الكتاب الجامعي في اطاره التقليدي، في ظل هذا التطور التكنولوجي المتحرك في طرق التعليم؟ أم يجب أن نعمل على تقبل التطور الحاصل والتأقلم مع الكتب الالكترونية الحديثة؟

أمام هذا الوضع الجديد، والتساؤلات المطروحة، نرى أن الجامعة تستطيع العمل في اتجاه تطوير الكتاب الجامعي وفقا للأسس التالية:

١ ـ وضع خطة طموحة بحيث نرتقي بالكتاب الجامعي الحالي[١٨] الى آخر، له صفة

(١٧) على سبيل المثال وفي المجال القانوني تحديدا، فإن الموجب في لبنان هو التزام في القانون المصري والسوري والعراقي. أيضا، إلغاء العقد في لبنان هو نسخه في تلك القوانين. والنسخ في القانون اللبناني هو نفسه الالغاء في القوانين العربية. سامي منصور وعكاشة محمد عبد العال، مرجع سابق، طبعة ٢٠٠٠، ص٣٥.

(١٨) والتي يوصفها الطالب على الشكل التالي:
«موجود شكلا وغائب مضمونا».
«كبير الحجم وثقيل الوزن بلا فائدة».
«لا يؤثر في طموح الطلبة».
«وجوده من عدمه».

المرجع المتكامل، بحيث يصبح حاجة وضرورة ليس للطالب الجامعي فحسب بل للقارئ المهني وغير المهني بشكل عام[١٩].

٢ ـ العمل على ضبط عملية التأليف بواسطة الأقسام العلمية فيها، حيث يكون دور هذه الأخيرة أساسياً لجهة الاشراف، التدقيق، التقييم، الجدية، الصرامة..

٣ ـ التشدد قدر المستطاع بضرورة الالتزام من قبل الأساتذة بقواعد الجودة والنوعية العلمية للمؤلف.

٤ ـ تشجيع التأليف المشترك، لأنه يشكل بحدّ ذاته ضمانة لجودة عالية ومتنوعة. وكذلك تسهيل نشر الكتب خارج نطاق الجامعة، وايجاد الحلول الناجحة للمؤلفين، مع ضرورة افادتهم من ذلك مادياً ومعنوياً.

٥ ـ إغناء المكتبات التابعة لها، بالمراجع الأصلية والأساسية، الوطنية منها والأجنبية وفي مختلف الحقول المعرفية.

خلاصة القسم الأول:

بيّنا في القسم الأول من هذه الدراسة، ان الكتاب الجامعي الورقي يشكل ركيزة ودليلاً للدراسة في مجالات عديدة، وانه ثابت بفعل ثبات الكتابة وتطورها عبر الأزمنة والأمكنة في التاريخ القديم والمعاصر. نضيف الى ذلك أن هذا الكتاب قابل للتطور والتكيف، وفقا للمعطيات والظروف المحيطة به، لذا يلجأ اليه الطالب الجامعي، لأسباب عديدة ومتنوعة كما أشرنا.

كذلك، وبعد أن شددنا على أن للكتاب الجامعي الورقي دوراً وأهمية داخل الجامعة، وحتى في خارجها، وجدنا تبريرا منطقيا لذلك، يكمن، في ان الكتاب في المضمون، هو مصدر للمعلومات، وفي الشكل، هو مصدر عملي ومنهجي مهم بالنسبة للطالب ولممارسي المهن المختلفة..

أخيرا، بيّنا أن هناك سبل عديدة للارتقاء بالكتاب الجامعي الورقي، منها ما يتعلق بالمعايير الواجب توفرها فيه، ومنها ما يتعلق بالدور الطليعي الذي يجب أن تضطلع به الهيئات الجامعية المختصة في سبيل تحسينه وتطويره.

القسم الثاني:
الكتاب الجامعي الورقي
وتحديات ثورة المعلومات

بعد أن بيّنا في القسم الأول من هذه الدراسة ثبات وصمود الكتاب الورقي، نظرا لدلالته التاريخية والانسانية والواقعية، نجد حاليا أن الكتاب الجامعي الالكتروني بدأ ينافسه بشكل جدي.

بالواقع، ظهر الكتاب الالكتروني من رحم التطور التكنولوجي المستمر الذي تعيشه البشرية جمعاء، فمن الطبيعي والحالة هذه، أن يصبح من أبرز الوسائل والاختراعات الجديدة لنقل المعلومات والرؤى[٢٠]، ويتحقق عندها حلم البعض الذي يدعو الى عالم بلا ورق[٢١].

---

(١٩) ان الكتاب الورقي سيبقى مرجعا أساسيا في البحث الفكري والعلمي نظرا لمصداقيته. فهو من المصادر العينية الوثيقة التي تحل المصداقية بالقياس الى الكتب والدوريات الالكترونية. فالشك بالكتاب الالكتروني يقترن بوصفه ثقافة مجانية جاهزة...راجع، ثقافة: الكتاب الالكتروني ينافس نظيره الورقي في طقوس إلغائه، باقر حجاب، جريدة الصباح، ٩ أيلول ٢٠١٠، العراق ـ بغداد.

(٢٠) على غرار ما بينا في القسم الأول من هذه الدراسة، وتحديدا في المبحث الأول ص.. فما نراه اليوم عجيبا ومدهشا، ستنظر اليه الأجيال القادمة على انه أمر مفروغ منه واعتيادي جدا.

(٢١) أحمد خضر، هل ثورة النشر الالكتروني تحجب الكتاب الورقي من السوق؟، جريدة الرياض، ٢٤ دسمبر ٢٠٠٥، العدد ١٣٦٩٨، السعودية.

الا انه وفي حقيقة الأمر، ما يجمع ما بين الكتابين هو أقوى بكثير مما يفرقهما. فالقراءة هي القاسم المشترك بينهما (بالرغم من أن التقنيات مختلفة في كلا الكتابين). من هنا جاء اقتراح البعض وبكل بساطة في أن يتم تحويل الكتاب الورقي الى كتاب الكتروني!!

لكن، هل يمكننا بالفعل الاكتفاء بالتحويل؟ أليس من المتوجب علينا كأساتذة وهيئات جامعية مختصة التفكير مليا في اعادة صياغة النظام التعليمي القائم على الكتاب التقليدي، بحيث نستطيع التأقلم مع النظام التعليمي الجديد المرتكز على الكتاب الالكتروني، أو أقله الدمج أو المزج بينهما، على اعتبار ان هناك امكانية برأينا للتعايش معا ويصبح لكل منهما جمهوره. الكتاب الجامعي الورقي ومواكبته لمتطلبات العصر **(المبحث الأول)**.

غير انه، بالرغم من القدرة الحقيقية للكتاب الورقي على هذا التكيف لأسباب تتعلق بطبيعته ومكوناته الذاتية، الا ان للكتاب الالكتروني ايضا، مميزاته التي فاقت لا بل تعدت المميزات التي اتسم بها الكتاب التقليدي. فالبعض اعتبر ان سنة هي سنة التحول الى الكتاب الالكتروني[٢٢]. بينما اعتبر فريق آخر ان الكتاب الالكتروني ولد من رحم الكتاب الورقي[٢٣]. لكن هناك العديد من الاختصاصيين الذين يؤكدون ان الكتاب الالكتروني ما زال محاطا بالشك ويوصم بكونه ثقافة مجانية جاهزة، على عكس منافسه الورقي الذي مثّل ولم يزل يمثّل مصدرا موثقا ويتمتع بمصداقية عالية[٢٤]. فما هي مميزات وعيوب الكتاب الالكتروني؟ **(المبحث الثاني)**.

الا ان محاولة استشراف المستقبل تدفعنا الى القول ان هناك شواهد بدأت بالظهور فعلا في هذا العالم (وفي أمريكا على وجه التحديد)، حيث يتعايش الكتابان جنبا الى جنب، ففي الوقت الذي يرفع فيه شعار «احفظ شجرة» للحفاظ على البيئة، تقام الندوات والمؤتمرات عن أهمية الكتاب الورقي والقراءة[٢٥]. فماذا تخبئ لنا السنوات القادمة؟ سنتكيف مع مساكنة الأمر الواقع، أم يتكرس الفراق بفعل التطور ما بين الكتابين؟ **(المبحث الثالث)**.

المبحث الأول:
الكتاب الجامعي ومواكبته لمتطلبات العصر.

كما أسلفنا، منذ فجر التاريخ، والكتاب الورقي حقيقة موجودة، ولكن في أيامنا الحاضرة يبرز واقع جديد، وهو النشأة والتطور السريع الذي يعرفه الكتاب الالكتروني.

كلا الكتابين برأينا له خصوصية من حيث الزمان والمكان والحاجة اليه. الا ان متطلبات العصر والتطور تفرض على الكتاب الورقي «جرعات خيال علمية أكيدة» في بعض الأحيان لتبسيط المناهج والأفكار الواردة فيه. كما وانه

(٢٢) كلود صليبا، مرجع مذكور سابقا، جريدة المستقبل ١٥ كانون الثاني ٢٠١٠، ص١١.

(٢٣) مصطفى منيولي، الكتاب الالكتروني ولد من رحم الكتاب الورقي الذي ما زال حيا، مداخلة في ندوة بعنوان «القراءة في العصر الرقمي: الواقع والتطلعات في العالم العربي» مقر كلية الاعلام، الفرع الأول في الجامعة اللبنانية، ١٥ نيسان ٢٠١٠، بيروت ـ لبنان.

(٢٤) يحيى القيسي، هل سينقرض الكتاب الورقي؟، مجلة القدس العربي، ٢٠٠٨/٥/١٩، عمان ـ الأردن.

(٢٥) هذا الشعار تسوقه مؤسسات بيئية دفاعا عن المساحات الخضراء والغابات، وتطالب بالوقت عينه بالتوقف عن استخدام الورق، والاستعاضة عنه بالكتابة والقراءة الالكترونية، من أجل حفظ جميع هذه الأشجار من القطع، ومن ثم تصنيعها كورق. من جهة ثانية نجد أن التزاحم والسباق مستمر وعلى وتيرة متسارعة ما بين العالم الافتراضي والعقلي، ما بين مؤيد ومعارض للورق العادي والالكتروني. هذا التزاحم ولد صراعاً ما بين الكتابين والبقاء سيكون بطبيعة الحال للأقوى والأصلح والأفضل...أو للاثنين معا!!

من جهة ثانية، فإن الكتاب الالكتروني يحتاج أيضا «للمسات انسانية وواقعية» حتى يكتمل. فهل باستطاعتنا المحافظة مستقبلا على تكاملهما وتوازيهما، أم انه يجب الانتقال من مرحلة عرفت الفخر والمجد كله، الى مرحلة ثانية ستقضي على ذلك؟ من الكتاب الجامعي الورقي الى الكتاب الجامعي الالكتروني **(أولا)**.

هذا الانتقال المشار اليه أعلاه يرتب نتائج ومفاعيل هامة، على طريقة التعليم والاستفادة من المعلومة[٢٦]. فمسألة التطرق الى نظام التعليم أمر يفرضه التطور الجديد. التعليم الجامعي التقليدي والتعليم الجامعي الالكتروني، تطابق أم تنافر؟ **(ثانيا)**.

أولا: من الكتاب الجامعي الورقي(التقليدي) الى الالكتروني[٢٧]

ان التطورات التكنولوجية الهائلة أدت فيما أدت اليه الى قلب عالم الكتاب ابتداء من حالته البدائية منذ عدة قرون وصولا الى يومنا هذا[٢٨]. فالكتاب الورقي اليوم، وبالرغم من صموده وثباته (لا بل أقول ضرورة ثباته في معركته مع الكتاب الالكتروني)[٢٩] فقد الكثير من مميزاته بفعل التطورات التكنولوجية هذه، والتي انعكست بدورها تغييرا وتطويرا في العادات الانسانية.

بالواقع منذ أواسط التسعينات بدأت مفاهيم جديدة بالظهور، تتعلق بالنص الالكتروني، بالناشر الالكتروني، بالمكتبات على الخط، بالمكتبات الرقمية...وتطور الأمر وترسخ في الوقت الحاضر وبعد الألفية الثانية مع ظهور القواعد النصية على شبكة النت، والكتب الرقمية للأشخاص العاديين والمكفوفين، وظهرت برمجيات الترجمة والقراءة...الخ...

ونحن اليوم أمام (ما سوف نعتاد عليه أيضا في المستقبل) الورق الرقمي والذي أصبح حقيقة واقعة وبالتالي، فان الكتاب «الورقي» الرقمي أصبح تجسيدا لهذا التطور غير المسبوق في عالم التكنولوجيا والانترنت. ويمكننا من الآن فصاعدا قراءته والعودة اليه عن طريق الحاسوب أو جهاز خاص...[٣٠]

هكذا، نجد أنفسنا اليوم أمام تواجد فعلي لكتابين، الأول تقليدي عمره بالقرون وعرف مجدا وفخرا قل نظيره، والثاني حديث الكتروني، لم يتجاوز عمره النصف قرن بعد. فعملية العبور اذا، فيما بينهما تمت وستتزايد بفعل سنة التطور والتقدم وهذا ما نتوقعه للمستقبل[٣١].

---

(٢٦) ففي ظل الكتاب الورقي وأسلوب التعليم التقليدي، فان أسلوب عرض المعلومة في النظام التقليدي يستلزم عادة وجود أستاذ يشرح المعلومة من خلال محاضرة أو كتاب ويقوم بتدريب الطلاب وامتحانهم... أما في ظل الكتاب الالكتروني والتعليم الالكتروني، فإن الطالب يحتاج في الكثير من الأحيان للاعتماد على نفسه في فهم المعلومات والتدرب عليها، وهذا ما يسمى بالتعليم الذاتي الذي يشكل ركيزة التعليم الجامعي الالكتروني.

(٢٧) ماري ليبر، المعركة: من الكتاب الورقي الى عصر الورق الرقمي»، مؤلف جماعي، نشر في دجنبر، المطبعة الجامعية بالكبيك، ٢٠٠٧، كندا.

(٢٨) راجع تطور مفهوم الكتابة والكتاب، ص...من هذه الدراسة.

(٢٩) كان الكتاب الورقي يخرج بعد كل اختراع من عنق الزجاجة ويثبت انه الأول والأفضل في مجاله... راجع فهد الأجمدي، آخر معارك الكتاب، جريدة الرياض، ١٤/١٠/٢٠٠٢، الرياض ـ السعودية.

(٣٠) عبد الحميد اليسيوني، مرجع سابق، طبعة ٢٠٠٩.

(٣١) الكتاب الجامعي الالكتروني بدأ بالحلول العملي أو المتوازي (لغاية الآن) مع الكتاب الجامعي الورقي التقليدي وأصبحت امكانيات الجامعات اليوم وفي ظل هذه التطورات التكنولوجية الهائلة تسمح لها بإطلاق المقررات الدراسية والتعليمية عبر الهاتف المحمول، بحيث يستطيع الطالب وفي أي مكان يحلو له الاستماع بواسطة هاتفه المحمول مثلا الى المحاضرات والشروحات كاملة، بالاضافة الى مشاهدته للمخططات والرسومات والصور المكتوبة من قبل الاستاذ...

هذه التطورات التكنولوجية الهائلة، وهذا الانفعال التدريجي من المعطى الورقي التقليدي الى الالكتروني، يدفعنا للتساؤل عما اذا كان هناك تطابق أم تنافر فيما بين طريقتي التعليم التقليدي والالكتروني؟

ثانيا: التعليم الجامعي التقليدي والتعليم الجامعي الالكتروني، تطابق أم تنافر؟

لا بد لنا، بادئ ذي بدء، من بيان خصوصية كل من نظامي التعليم الجامعي التقليدي والالكتروني، لتحديد مقدار التطابق والتنافر بينهما.

التعليم التقليدي	التعليم الالكتروني
يرتكز على انتاج المعرفة.	يرتكز على معالجة المعرفة.
المعلم هو الملقن، وهو أساس العملية التعليمية وناقل المعرفة.	المعلم هو الموجه والمرشد ومقدم الاستشارات الدائم.
غير مكلف ماديا، ولا يحتاج لوسائل عالية التقنية.	عالي التكلفة، ويحتاج لوسائل وتجهيزات غالية الثمن وعالية التقنية.
يحدد للطالب مكان وزمان محددين يتلقى خلالهما المعلومات مباشرة من خلال المحاضرة التي يلقيها أستاذ المادة.	ليس هناك من تحديد لا للمكان ولا للزمان. الطالب وبالاعتماد على التقنيات الحديثة يصل للمعلومة حينما يشاء وأينما يشاء.
جهد الطالب الوحيد هو الاستماع وكتابة ما يستطيع كتابته عند القاء الأستاذ للمحاضرة.	جهد الطالب هنا، يتفاعل مع المادة وبالتالي يقوم بالتعلم الذاتي للمادة من خلال ما يكتشفه بنفسه وبشكل مباشر وحي..
يقوم على وجوب حضور الطالب والانتظام في تلقي المحاضرات طوال أيام الأسبوع. وبالتالي لا يستطيع الطالب القيام بأي عمل آخر الى جانب العملية التعليمية.	يعطي فرصة التعلم لجميع الفئات في المجتمع دون النظر الى عمر معين أو وضع اجتماعي معين، ودون الالتزام بمكان أو زمان معينين.
يرتكز على الكتاب الورقي وبعض الرسومات والصور التي تفتقر غالبا للدقة والوضوح والحداثة..	يرتكز على الكتاب الالكتروني المرئي. ويعتمد على الصورة الحديثة والصوت والحركة في آن، ممّا يجعل التعلم أكثر اثارة وتحفيزا بالنسبة للطالب.
يحدد فترة التواصل مع المعلم ويحصرها بالحصة التعليمية.	ليس هناك من تحديد، بل حرية تواصل مع المعلم في أي زمان ومكان عن طريق العنوان الالكتروني.
ليس هناك من تنوع من حيث الأشخاص متابعي عملية التعلم، بمعنى اقتصار الحضور على أشخاص معينة.	هناك تنوع لهذه الجهة، بحيث نجد أشخاصا من مختلف أنحاء العالم يتابعون عملية التعلم بنفس الوقت.
تستخدم اللغة الرسمية لغة الدولة في عملية التعلم والتعليم.	تستخدم أكثر من لغة عادة نظرا لاتساع وتنوع المشاركة والمشاركين في العملية التعلمية والتعليمية.
يفرض وجوب وجود الطالب شخصيا لاتمام: ـ التسجيل والمتابعة ـ الفروض والاختيارات ـ مناقشة الرسائل والأطاريح	يمكّن الطالب من القيام بأعماله، أو بمجمل أعماله الأكاديمية، بطريقة الكترونية، وفي اي مكان وزمان يريد.
تحدد أعداد الطلاب بمقتضى هذا النظام نظرا لعوامل عديدة.	لا تحدد أعداد الطلاب، لا بل أكثر من ذلك يسمح بتعدد جنسيات الطلاب وبأعداد كبيرة تصل لمئات الآلاف في بعض الأحيان.

يراعي المستوى العلمي للطلاب اذ يقدم المعلم المحاضرة بنفس الوتيرة ونفس الشرح للجميع.	يراعي المستويات كافة، يقدم التعليم وفقا لمستوى وحاجة الفرد مهما كان وضعه الثقافي، الاجتماعي.. الاقتصادي..
يعتمد على الحفظ والحشو للمعارف التي يتعلمها، وكذلك على تجميع المعارف ومحاولة تذكرها الدائم.	لا يعتمد على الحفظ، انما على تعلم طرق التعليم وهذا ما يدفع الطالب الى الابداع والخلق (اذا أعطى عملية التعلم الوقت والصبر الكافيين)
تحديث المعلومات والمواد لا يتم بشكل سريع، وبالتالي فإن عملية التعديل قد تتطلب سنوات في بعض الأحيان[٣٢].	تسهل فيه عملية تحديث المادة وتعديلها خلال الفصل الواحد في بعض الأحيان.

من استعراضنا ومقارنتنا لطريقتي التعليم، التقليدية والالكترونية، يمكننا تسجيل الملاحظات التالية:

١ ـ ان التعليم التقليدي والتعليم الالكتروني يتفقان في الغاية ويختلفان في الوسيلة.

* الغاية واحدة وهي تهدف الى التوصل الى مستوى عال من:

- المعرفة المتقدمة (علميا)
- التأهل الجيد (مهنيا)

* اختلاف في الوسيلة: متطلبات التعليم الالكتروني تختلف عن تلك التقليدية.

٢ ـ ليس باستطاعتنا الاكتفاء فقط بتحويل الكتاب من صيغة ورقية الى أخرى الكترونية.

٣ ـ يجب اعادة خلق المحتوى المعرفي والعلمي والتعليمي للنظام التقليدي وأقلمته مع المعطيات الجديدة.

٤ ـ وضع وإعداد نظام تعليمي يتناسب ومكنات التعليم الالكتروني.

ان اعادة خلق المحتوى المعرفي، العلمي والتعليمي وفقا لمتطلبات التعليم الالكتروني، يحتم علينا قبلا معرفة ما اذا كان لهذا الكتاب الالكتروني مميزات أو عيوب تضاهي أو توازي تلك العائدة للكتاب الورقي؟

المبحث الثاني:
مميزات وعيوب الكتاب الجامعي الالكتروني.

مما لا شك فيه اليوم ان الكتاب الجامعي الالكتروني فرض نفسه[٣٣]. فهو موجود وفي تزايد مضطرد. فانتشاره لم يأت من الفراغ، انما لهذا الانتشار أسبابه **(أولا)**، يتمتع بمميزات خاصة به **(ثانيا)** لكنه أيضا يراكم عيوبا **(ثالثا)** على غرار الكتاب الورقي.

أولا: أسباب انتشار الكتب الالكترونية.

اننا نرى أن أسبابا عديدة ومتنوعة تقف خلف هذا الانتشار السريع للكتاب الالكتروني، منها ما يتعلق بعيوب الكتاب الورقي نفسه **(أ)**، ومنها ما يعود الى التطورات التكنولوجية التي سمحت لغاية اليوم تثبيت وجوده **(ب)**، ومنها أخيرا ما هو مرتبط بالنواحي الاقتصادية والمالية **(ج)**.

أ ـ *بالنسبة للأسباب المتعلقة بعيوب الكتاب الورقي نفسه:*

ـ ان الكتاب الورقي بالرغم من ماضيه العريق

(٣٢) مرجع موجود على الانترنت تحت عنوان مقارنة التعليم في الكتاب الورقي والتعليم في الكتاب الالكتروني، دون ذكر المؤلف، وسيلة النشر، السنة، مكان وبلد النشر... تاريخ دخول للموقع ٢٠/١١/٢٠٠٩.

(٣٣) أكدت مؤسسة اندرسون للاستشارات انه منذ عام ٢٠٠٥، بلغت مبيعات الكتب الالكترونية في الولايات المتحدة الأميركية حوالى ١٠٪ من مجموع مبيعات الكتب، فكيف سيكون الوضع عام ٢٠٢٠ مثلاً؟

تحول الآن ليكون برأينا سبباً مباشراً في انتشار منافسه الالكتروني، وذلك:

- للتضخيم الهائل في حجم المطبوعات الورقية، من (كتب، مجلات، موسوعات....).
- صعوبة المحافظة على الكتب ومختلف المنشورات الورقية، بحالة جيدة ولمدة طويلة.
- عدم القدرة على تعديل، تغيير أو تحديث المطبوعات الورقية على اختلافها الا بإصدار نسخ جديدة.
- صعوبة العودة الى الكتب القديمة نظرا لعدم القدرة في الوصول اليها في معظم الأحيان.
- وجوب قراءة معظم صفحات الكتاب لمعرفة محتواه، مما يتطلب الكثير من الجهد والعمل .
- نوع الورق المستخدم في صنع الكتاب، والذي يشكل في بعض الأحيان عقبة رئيسية أمام الاطلاع عليه.
- وجوب توفير أمكنة متسعة تراعى فيها شروط معينة للمحافظة على سلامة الكتاب.

ب ـ *الأسباب المتعلقة بالتطورات العلمية والتكنولوجية.*

باعتقادنا، ان هذه التطورات العلمية والتكنولوجية هي التي دفعت وبشكل رئيسي بالكتاب الالكتروني الى الأمام، وأظهرته كذلك الى حيز الوجود عن طريق:

- توفير قواعد المعلومات والأقراص المضغوطة وتعميم استخدامها.
- انتشار استخدام الحواسيب على مختلف أنواعها في القطاعات العامة والخاصة وحتى على صعيد الاستعمال الفردي والشخصي.
- ربط تكنولوجيا الحواسيب وتقنيات الاتصالات المتعددة للدخول الى المعلومات.
- السرعة والدقة واختصار الوقت في البحث عن المعلومات والمعارف المختلفة.
- سهولة تعديل المادة المنشورة الكترونيا وتنقيحها باستمرار.
- انشاء وتطوير نظم المكتبات الالكترونية، وبنوك المعلومات، ومراكز التوثيق الالكترونية.
- النشر الذاتي للمؤلفين والباحثين...
- دمج الصورة والصوت والكتابة الالكترونية فيه.
- الخ..

ج ـ *الأسباب المتعلقة بالنواحي الاقتصادية والمالية:*

نجد كذلك ان للأسباب الاقتصادية والمالية أثرها المباشر في انتشار الكتاب الالكتروني، منها:

- ارتفاع الكلفة للمنشورات الورقية، اذ ان هذه الأخيرة تتطلب:(ورق، حبر، طبع، توزيع، تجليد، شحن...)
- التأخير المزمن الذي توصف به عادة المنشورات الورقية لجهة انها بحاجة لوقت كبير للانتاج ولتصريفه، لأسواق جديدة وفي بعض الأحيان لكميات أكبر..

أدت كل هذه الأسباب برأينا، الى تثبيت وجود الكتاب الالكتروني بالتوازي مع نظيره الورقي، لا بل أدت منافسته لهذا الأخير بفعالية وجدية سيما وانه يتمتع بمميزات أكيدة وعيوب ظاهرة...

ثانيا: مميزات الكتاب الجامعي الالكتروني:

كما قدمنا فيما سبق، ان التطور التكنولوجي الهائل، دفع بالكتاب الالكتروني بعد انشائه ليكون وسيلة جديدة لنقل الأفكار والمعارف وحتى الأحاسيس.. ولأن يقدم في أغلب الأحيان محتوى الكتب الورقية التقليدية، بأسلوب حديث، الكتروني ورقمي(٣٤).

(٣٤) يتضمن الصوت والصورة والفيديو...

فهل الكتاب الالكتروني[٣٥] يعتبر الابن الشرعي للثورة المعلوماتية؟ والذي أثّر بشكل كبير على تراجع الكتاب الورقي؟!.. وهل باستطاعتنا اليوم، نحن القراء، تبعا لهذا التراجع على نظيره الورقي، اهماله؟ بل وأكثر من ذلك، هل بمقدورنا اليوم اعتبار ان هذا الكتاب الجديد يشكل مصدر الخطر على الانسان وثقافته؟!..

للاجابة عن هذه الأسئلة المطروحة أعلاه، لا بد لنا من استعراض مميزاته لبيان ايجابياته وبالتالي خصوصيته.

هذه المميزات، يمكن ايجازها على الشكل التالي:

- سهولة تحريره، اعداده واخراجه بشكله النهائي...
- السهولة في البحث واختصار الوقت.
- القارئ يستطيع انجاز البحث والوصول الى المعلومات المطلوبة مهما كان الحجم الفعلي للكتاب المبحوث فيه (كالمراجع العلمية والقانونية والأدبية...والقواميس والمعاجم...)
- توفير الحيز المكاني، بمعنى أن هذا الكتاب لا يحتاج الى مساحات كبيرة، باعتبار ان كل cd تحتوي على حوالى كتاب كمعدل عام، مما يؤدي الى توفير في المساحة الطبيعية لتخزين الكتب.
- سهولة استشارته واستعماله.

هذا الكتاب الالكتروني يتيح:

- تحويل النصوص المكتوبة الى مقروءة بواسطة أصوات بشرية.
- تغيير حجم النص لتسهيل قراءته.
- تجاوز مسألة سوء الطباعة والتغليف للكتاب.
- الاجابة على الأسئلة المطروحة، كفتح الصفحات المطلوبة من الكتاب...

- سهولة تعديل وتغيير واضافة نصوص أو صور أو أصوات على المادة..وامكانية نسخه في أي وقت.
- سهولة التحكم بالطباعة والنسخ، فبالإمكان منع ذلك منعا تاما أو السماح بعدد محدود فقط.
- سهولة الحفاظ على حقوق المؤلف.
- يتمثّل بذلك بالامكانية المتاحة لمنع تغيير اسم المؤلف ودار النشر وغيرها من العلامات التي تؤدي الى حفظ حقوق المؤلف والباحث من الهدر والضياع.
- سهولة توزيعه وانتشاره.

ان طبيعة الكتاب الرقمية الغير ملموسة تساعد على سرعة انتشار الكتاب في ارجاء العالم كله بذات الوقت وبسرعة فائقة.

- الحفاظ على البيئة.

اذ ان الكتاب الالكتروني لا يحتاج الى الورق وبالتالي لقطع الأشجار... ولا الى الحبر الذي يصنع من مواد كيميائية سامة.

- يتيح الكتاب الالكتروني للباحثين والمؤلفين امكانية النشر الذاتي دون اللجوء الى مؤسسات تعنى بذلك.
- سهولة تحويله في أي مكان وزمان لكتاب مطبوع.
- سهولة اقتنائه أو الحصول عليه للحظات معدودات ولو كان يتواجد في أماكن بعيدة.
- سهولة المحافظة عليه من التلف أو الضياع والتعرض لمختلف العوامل التي تؤثر في وجوده.
- امكانية قراءته في الظلام أو الضوء الضعيف.

(٣٥) STRAINCHAMPS.B. "Livre numérique, le pour et le contre", journal libération du 28/06/2010, Paris, France.

ـ يقدم للقراء والباحثين خدمات جمة، من حيث امكانية البحث والفهرسة الالكترونية.

هذه المميزات، على سبيل الذكر لا الحصر، لا تمنع في الوقت عينه من أن يكون لهذا الكتاب عيوب تحد لغاية اليوم من انتشاره ومنافسته الفعلية للكتاب الورقي المطبوع. فما هي هذه العيوب؟ وهل هي فعلا كذلك؟

ثالثا: عيوب الكتاب الجامعي الالكتروني:

هذه العيوب تتمثل:

١ ـ عدم قدرة عامة الناس، من طلّاب ومهنيين وموظفين...من شراء الأجهزة والأدوات المناسبة لقراءة الكتب الالكترونية وحسن الاستفادة منها، وذلك لأسباب عديدة منها:

- ارتفاع اسعارها
- ارتفاع سعر اصلاحها في حال تعطلها
- تطورها التكنولوجي السريع، اذ ان التطور الهائل وظهور أجهزة جديدة وبالتالي وسائط جديدة وحديثة...تلغي بل وتقضي على الأجهزة القديمة تماماً، وبفترة زمنية قصيرة نسبياً.

٢ ـ نظرا لحداثة استعمال الحواسيب والاستفادة من امكانياتها الهائلة في مجال الكتب الالكترونية نلاحظ أن هناك:

- قلة في عدد العناوين المتاحة إلكترونياً.
- ارتفاع في أسعار الكتب الالكترونية

٣ ـ ان الكتب الالكترونية اليوم تواجه مشكلات عديدة فيما يتعلق:

- بعدد المستخدمين الذين يتقنون استعمال الحواسيب والبرامج الآيلة الى الاستفادة منها بشكل جيد.
- حفظ وصيانة هذه الأجهزة والوسائط
- عدم التوافق في بعض الأحيان ما بين الأجهزة وبعض البرمجيات المختلفة والتي لا تعمل الا على حواسيب معينة ومحددة.

٤ ـ ان الكتب الالكترونية تؤدي في غالب الأحيان الى خرق ما يتعارف على تسميته بحقوق النشر العائدة للمؤلفين.

٥ ـ الاعتماد على مصادر محددة للطاقة (الكهرباء، بطاريات...).

٦ ـ التصفح للصفحات والبحث البصري (بالعين المجردة) هو بطيء بالمقارنة مع الكتاب الورقي.

٧ ـ لا يمكن استشارة الكتب الالكترونية اذا لم يكن لدينا الحاسوب المناسب لذلك، (وفقا لمعادلة بسيطة، بدون آلة ولا كتاب...[٣٦].

غير أن، عيوب الكتب الالكترونية هذه، برأينا، ستزول مع الوقت، لكي تصبح مكنات في المستقبل القريب، لا سيما في مجالات محددة ومعينة، كالمجال الاكاديمي، اذ ان تزايد الكتب الالكترونية التي تعالج موضوعات أكاديمية سيزيد من اقبال الطلاب (الذين يعدون بحوثاً جامعية متنوعة، علمية، أدبية، قانونية...) على استخدامها لسهولة البحث والاسترجاع مقارنة مع الكتب الجامعية الورقية.

بالاضافة الى اعتقادنا المؤكد، من أن كتب المستقبل الالكترونية، ستستفيد من التطورات التكنولوجية لتحسين وتعزيز الاستفادة من الحواسيب بشكل أفضل، لتحسين القراءة مثلا من نواح عديدة: كاصدار نسخ مسموعة، مرئية، اضافة الى النسخ المقروءة... الخ..

(٣٦) -Marie Lebert "Les inconvénients du livre numérique", Edition actu, N 87, le 15 dec. 2003, Paris, France.
-STRAINCHAMPS.Bernard" Livre numérique, le pour et le contre", journal libération du 28/06/2010, Paris, France.

أيضا، أصبح هناك امكانية اليوم للاطلاع الكترونياً، على كتب التراث النادرة، والمصنفة في غالب الأحيان في نطاق الملكية العامة، أينما وجدت وفي أي بلد من البلدان، وعملية الاطلاع هذه يمكن اتمامها بسهولة وسرعة وبدقة متناهية. كذلك فيما يتعلق بالقواميس والمعاجم والموسوعات[٣٧] الكبيرة الحجم (متعددة المجلدات)، والتي يمكن الرجوع اليها وبسرعة قياسية، لا تضاهيها أبدا سرعة الرجل العادي في البحث بالنسخ الورقية[٣٨].

كل هذه «العيوب» سوف تنقلب (كما سبق القول) الى مكْنات، بفعل التطور التكنولوجي الذي ليس له حدود...

ان التطورات التكنولوجية الهائلة، والسريعة، وما يرافقها من تغيرات وتبدلات عملية، تفضي بنا الى استخلاص عدة نتائج على الوجه التالي:

ـ ان عيوب الكتاب الورقي هي مكنات للكتاب الالكتروني.

ـ ان عيوب الكتاب الالكتروني هي في طور التحول، بفعل التطورات الهائلة التي حصلت والتي يمكن أن تحصل، الى مزايا بالنسبة له.

ـ ان الاختراع العظيم الذي هو الكتاب الورقي، يواجه اختراعا موازيا في العظمة (وما هي الا البداية) هو الكتاب الالكتروني.

من هنا، لا بد لنا والحالة هذه، من طرح تساؤل مشروع وحقيقي وهو:

هل ما سوف يحصل بين الكتابين الورقي والالكتروني هو مساكنة الأمر الواقع؟ أم فراق بفعل التطورات التكنولوجية اللامتناهية؟ (المبحث الثالث).

المبحث الثالث:
الكتاب الجامعي الورقي والكتاب الالكتروني، مساكنة الأمر الواقع أم فراق بفعل التطور؟

الكتاب الالكتروني أصبح واقعا لا يمكن التغافل عنه، سيما وأنه في تطور لا متناهي بفعل ثورة المعلومات، التي ليس آخرها تكنولوجيا النانو[٣٩] والتي ستكون محور الحياة العصرية القادمة، أكان من حيث الاستعمال الفردي،الشخصي أو الاستعمال الصناعي العام. فهل يمكننا تصور مثلا «حواسيب خارقة الأداء يمكن وضعها على رؤوس الأقلام والدبابيس؟!...

من جهته، الكتاب الورقي في ظل هذه التطورات التكنولوجية الهائلة، والتي قلبت كل الموازين السابقة وأطاحت بكل ما هو تقليدي، هل يستطيع التعايش مع الوضع الجديد؟ أم يتحول الى تحفة نادرة أو سرا من أسرار العلماء والحكماء كما في الماضي؟

لغاية اليوم، يوصم الكتاب الالكتروني بوصمة الثقافة المجانية والجاهزة، بينما يوصف الكتاب الورقي بالجدية والمصداقية. فهل تتساكن الثقافة المجانية المرتكزة على الكتاب الالكتروني، كما أسلفنا، مع الجدية والمصداقية التي عرفها وما زال يعرفها الكتاب الورقي

(٣٧) موسوعة ويكيبيديا على سبيل المثال، هي الآن موجودة على الانترنت وهي بالواقع، مكتبة ضخمة قائمة بذاتها أحدثت ثورة في مفهوم القراءة والبحث عن مختلف المعلومات (العلمية، الأدبية، القانونية...).

(٣٨) محمد حنفي «خير جليس في انام هذه الأيام...كتاب الكتروني»، جريدة القبس الكويتية، تاريخ ٢٠٠٧/١١/٦، الكويت.

(٣٩) يرتبط النانو بمصطلح «المتناهي الصغر». فالنانوسكوب هو كالمايكروسكوب ولكن أكبر. ويسمح للعلماء بتكبير الأشياء بشكل هائل، لأن النانو هو جزء من مليار من المتر. ويمكن استخدامه في عدة حقول...من المسلم به انه كان لا يمكن تحقيق التطور النوعي في عالم برمجيات الكمبيوتر لولا هذه التقنية. بيار عفيفي، «النانو» في ديارنا...تقنية المستقبل الآتي»، جريدة البلد، ٢٥ تشرين الأول ٢٠١٠، ص٩، بيروت، لبنان.

التقليدي؟ (أولا: تعايش الأمر الواقع: الكتابان جنبا الى جنب) أم ان الصراع سوف يتعاظم بفعل التطورات التكنولوجية الهائلة؟[٤٠] (ثانيا: صراع من أجل البقاء والإلغاء بفعل التطورات التكنولوجية).

أولا: تعايش الأمر الواقع: الكتابان جنبا الى جنب

اننا اليوم أمام وضعية يتعايش فيها العالم الورقي والعالم الرقمي جنبا الى جنب. هذا التعايش فرض نفسه في الممارسة العملية، اذ ان هناك قواسم مشتركة تجمع ما بين الكتابين، الورقي من جهة، والالكتروني من جهة ثانية، أهم هذه القواسم هي القراءة.

بالواقع، ما الفرق في قراءة كتاب ورقي أو قراءة كتاب الكتروني.؟! بطريقة ومميزات كل من الكتابين، سيما واننا كنا قد بيّنا خلال هذه الدراسة بأن المميزات والخصائص لكلا الكتابين تقترب بعضها من بعض بفعل التطور والتقدم الهائل في عالم التكنولوجيا.

فما الضير ان نحمل بين ايدينا كتابا أم جهازا الكترونيا (يحاول التشابه لا بل التطابق الى حد ما مع الكتاب الورقي)؟ أليس ما يهمنا في نهاية المطاف هو القراءة؟

أ ـ أهمية القراءة بصرف النظر عن الوعاء

سئل فولتير مرة، عن من سيقود الجنس البشري؟ فقال، الذين يعرفون القراءة. لهذا القول دلالته العميقة، لذلك فإن العاملين مع أجيال المتعلمين في القطاع التربوي وعلى اختلاف مراحل عملهم، يرسمون الاستراتيجية التربوية تلو الاستراتيجية، للوصول بهم الى بناء الشخصية المتوازنة، الى تطوير ملكات الاستيعاب والتخيل، الى التفكير الصحيح والهادف، الى اكتساب القدرات والكفاءة المختلفة... وبالتالي فإن الأسلوب الأمثل لكل ذلك هو القراءة.

فالقراءة تزود الفرد، ومن ورائه المجتمع، بما يلزمه من معلومات وأفكار لتعزيز وتعميق معرفته وثقافته، وانطلاقه في هذا العالم، الذي أضحى قرية كونية صغيرة، ومن أجل اكتمال وعيه وانفتاحه الثقافي على الآخرين، والمشاركة الفعالة في تكوين الحضارة الانسانية، واعلاء شأن الانسان فيها.

عندما سئل أرسطو كيف تحكم على الانسان المتعلم؟ أجاب أسأله كم كتابا يقرأ، أو ماذا يقرأ؟

فالقراءة هي وسيلة أساسية للثقافة والتثقيف، ولاكتساب المعارف. يقول نجيب محفوظ في هذا الاطار «قارئ الحرف متعلم، وقارئ الكتاب مثقف».

ان القراءة سواء أكانت في كتاب ورقي أو في كتاب الكتروني (على الشاشة) هي مشاركة شخص آخر في عقله، عبر أفكاره المكتوبة سواء بالحبر العادي أو بالحبر الالكتروني، وهي الغذاء للعقل، وأداة لامتلاك المعرفة والوعي.

القراءة حثّت عليها الديانات السماوية[٤١]

---

(٤٠) من بين هذه التطورات التكنولوجية الهائلة تكنولوجيا النانو التي يمكن اختصارها ووفقا لقول أحد الكتاب على الوجه التالي: ان النانو يعد بمثابة اختراع القلم في القرون القديمة، ويكفي أن ندرك ما حققه القلم لنعرف ما يمكن أن يحققه النانو. بيار عفيفي، «النانو في ديارنا.. تقنية المستقبل الآتي»، جريدة البلد ٢٠١٠.

(٤١) ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم﴾ سورة العلق. الاسلام أكد اذاً أولوية القراءة في حياة الانسان، وانه لن يكون انسانا ولن يستطيع تحقيق الهدف من خلقه وهو (الكدح والتسامي) اذا لم يقرأ.

وهي تشكل مصدرا مهما لردع الطغاة والمتسلطين في الحكم[٤٢].

أيضا، القراءة وسيلة ناجحة لكسر الوحدة والمواساة، كما قال الجاحظ «استعن في الغربة بقراءة الكتب فإنها ألسن ناطقة وعيون رامقة».

فالقراءة تتطلب برأينا، بالاضافة طبعا لاجادتها واتقانها امتلاك:

- الارادة القوية
- توفر النية
- الكتاب الجيد...

انطلاقا مما تقدم أعلاه، لا فرق عندئذ بين كتاب ورقي وكتاب منشور بشكل الكتروني.

ان الكتاب الالكتروني أو الرقمي، أصبح اليوم جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية، فكلنا نلجأ، وفي ممارستنا اليومية، الى الكتاب الورقي والرقمي. فهما بالنتيجة يتكاملان ويسيران جنبا الى جنب.

ب - الكتاب الورقي والرقمي جنبا الى جنب:

ان الكتاب الورقي هو الانسان، سيستمر باستمراره ويندثر باندثاره، فهل يندثر العنصر البشري؟!.. أهمية الكتاب الورقي اذا هي من أهمية الانسان. فالانسانية حققت رفعتها وسموها من خلال الكتابة والكتاب الورقي. من هنا نجد ان الكتاب الورقي، سيبقى موجودا الى جانب الكتاب الالكتروني، بالرغم من التأثير الكبير من هذا الأخير.

لقد سبق القول في هذه الدراسة ان حكمة التاريخ أكدت انه لا يمكن لاختراع ما القضاء وبشكل نهائي على اختراع سبقه[٤٣]. فكيف اذا كان الاختراع المقصود الكتابة والكتاب الورقي؟

بطبيعة الحال، لا يمكننا بدافع التعصب للكتاب الورقي معاداة الكتاب الالكتروني، والتحفظ في استعماله، على الرغم من التأثير المباشر وغير المباشر لهذا الأخير، وبالتالي فإن الانتقادات الموجهة الى الكتاب الالكتروني وما شهده من تطور تكنولوجي لم تتوقف فصوله بعد...واعتباره بالتالي مصدر خطر على فكر الانسان وثقافته، هذه الانتقادات لن تتوقف، بل واستعملت في مناسبات كثيرة عبر التاريخ ولم تنجح[٤٤].

بالواقع لا نستطيع كبشر، الا وأن نكون في انحياز تام الى الانسان الذي اخترع الآلة، ووضعها الى جانبه، الى الابداع الانساني الذي انتج علماً، الى الفن الانساني الذي أرسى معادلات رياضية وتشكيلية...فالانسان وجد ليكون محورا في هذا العالم يخترع، يصنع علما وفنا...بتفاعله العقلي والعاطفي مع محيطه. بينما الكمبيوتر لا يتفاعل (لغاية اليوم) الا بما اراد له الانسان وبطرف أصبعه!!!...

من هنا، امكانية التعايش (لغاية اليوم) بين التقنيات الحديثة، والأدوات التقليدية للمعرفة، هي ثابتة، لا بل وأكثر من ذلك، ان هذا التعايش ضروري، وهو مهم في السعي الدائم للبشرية

(٤٢) الكاتب الارجنتيني البرتو مانغويل يؤكد في كتابه «تاريخ القراءة» بأن «الكلمة قوة يدركها الطغاة أكثر من المستضعفين». ويضيف في هذا الكتاب بأن «القراءة ضرورية للحياة كالنفس، وان تعلم القراءة بصوت مرتفع، أو القراءة بصمت هي القدرة على تخزين كنوز خاصة من المفردات في الذاكرة، وهذه مفردات مدهشة حصلنا عليها الى حد بعيد بطريقة لا يمكن تفسيرها».

(٤٣) راجع ص... من هذه الدراسة.

(٤٤) يمكن الاشارة في هذا السياق الى الانتقادات التي وجهت من قبل الفيلسوف سقراط للكتابة عندما استعملت كوسيلة لنقل المعارف بدلا من الشفاهة التي كانت آنذاك الوسيلة الوحيدة المتبعة لنقل الأفكار والمعارف عبر الأجيال. وهذا ما نشهده اليوم في الهجوم الحاد والغير مبرر على الكتاب الرقمي والالكتروني.

نحو الارتقاء المعرفي والتواصل الحضاري.

لكن، بالرغم من هذه المساكنة، التي نعيشها اليوم، يبدو ان العلم، سيغير مجرى حياتنا في القرن الواحد والعشرين وليس فقط سيؤدي الى القضاء على الكتاب الورقي وإلغائه من الوجود!!!

أصبح اليوم بمقدور العلماء «انتاج ترانزستورات كمية، دقيقة، أصغر من الخلية العصبية، مما يمنح الكمبيوتر قدرة على تطوير الخلايا العصبية الى شبكات عصبية بقوة الشبكات الموجودة في المخ البشري... فيصبح من الممكن استبدال الشبكات العصبية لدماغنا البشري بأخرى مصنعة...»[٤٥].

أيضا، ان «التعلم يمكن اتمامه بشكل واسع، عن طريق زراعة وغرز البيانات في الشبكة العصبية المتوفرة في الانسان، التي تستخدم لتحسين الذاكرة والفهم والادراك، ووقتها يستطيع الانسان أيضا تحميل وتنزيل المعرفة مباشرة...»[٤٦].

فهل على ضوء ما تقدم، يبقى التعايش قائما؟ أم ان الصراع لإلغاء الكتاب الورقي واعلان هزيمته النهائية قد بدأ؟

ثانيا ـ صراع الإلغاء للكتاب الورقي بفعل التطور العلمي الهائل

من خلال ما تقدم، والتطورات العلمية الهائلة، يمكن القول ان هزيمة الكتاب الورقي باتت قريبة لا بل قريبة جدا لأسباب عديدة:

١ ـ التقدم العلمي المتلاحق في المجال المعلوماتي أدى الى تضييق الفوارق ما بين الكتابين، بمعنى ان الكتاب الالكتروني أصبح يتمتع اليوم بالمميزات الفذّة للكتاب الورقي[٤٧]. بالاضافة الى مميزاته الخاصة به. فلماذا ابقاء الكتب الورقية اذاً؟

٢ ـ لا جدوى من التمسك بالكتاب الورقي في ظل هذا التقدم الهائل في عالم التكنولوجيا اذ، ما معنى وما هي الفائدة من الوقوف في وجه هذا التطور الهائل...من يجرؤ اليوم على الوقوف في وجه استخدام التلفون المحمول، الكمبيوتر، والانترنت؟..وكيف لا نتمسك بكل هذه الاختراعات الجديدة. فما الفائدة اذا من الدفاع عن الكتاب الورقي؟ سيما وان الدفاع، وفي ظل التطورات التكنولوجية الهائلة سوف يكون حتما واهيا وضعيفا!! وواقعا خارج العصر...

ان الغاء الكتاب الورقي أمر محسوم اذا، فبالنسبة لأحد الكتاب[٤٨] «كل شيء سيتحول الى كتاب رقمي في المستقبل، فالكتاب بعد عشر سنوات، سيبقى هو نفسه. أي من ورق وصفحات وطباعة ومكتبة ورفوف... أما الكتاب بعد خمسين سنة، كتاب رقمي بالتأكيد. اذ عندها سيكون آخر الطلاب الذين درسوا بالكتب الورقية قد ماتوا.. كل شيء سيصبح رقميا..ويصبح الكتاب الورقي شيئا معروضا في المتحف!!»

هل هذه هي الحقيقة اليوم؟ هل سيستسلم

(٤٥) ميتشيو كاكاو، رؤى مستقبلية، كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين، ترجمة سعد الدين خرمان، عالم المعرفة، الكويت، دون ذكر السنة.

(٤٦) راي كورزويل مذكور في بحث مقدم من قبل: أحمد فضل شبلول، «النشر الورقي والالكتروني وما بعد الالكتروني». بحث مقدم لمؤتمر «الكتاب والمستقبل ـ ثلاثون عاما على اتحاد كتاب مصر» تاريخ ٢١ ـ ٢٠٠٥/١١/٢٤، القاهرة.

(٤٧) راجع مميزات الكتاب الورقي ص... من هذه الدراسة.

(٤٨) فرانسوا اليغودو، نقلا عن مقال: اسكندر حبش «بعد خمسين سنة، يصبح الكتاب الورقي معروفا في المتحف»، جريدة السفير، تاريخ ٢٠١٠/٩/٢٤، بيروت، لبنان.

الكتاب الورقي التقليدي؟ وهل يختفي خط يد الانسان؟ وكيف نعلم أولاد المستقبل القراءة والكتابة من خلال الكمبيوتر أم....؟

خلاصة القسم الثاني:

بيّنا في هذا القسم ان الكتاب الجامعي الورقي، قادر على مواكبة العصر ومتطلباته، وان مجرد قابليته للتحويل الى كتاب الكتروني يعني الكثير... ويعني أيضا انه خير شاهد على قدرته في التكيف مع معطيات العصر التكنولوجية...

الاستنتاج الذي توصلنا اليه يؤكد، ان قابلية الكتاب الورقي للتحويل الى كتاب الكتروني، لا تكفي وحدها للدلالة على هذه القدرة التي للكتاب الورقي، على التكيف مع متطلبات العصر، انما لا بد لنا من العمل على تطوير النظام التعليمي نفسه، اذ النظام التعليمي التقليدي لا يستطيع مواكبة الكتاب الالكتروني والعكس صحيح أيضا.

توصلنا أيضا الى نتيجة معبرة ومهمة، وهي انه أصبح للكتاب الالكتروني مميزات تتطور باستمرار، بفعل التقدم التكنولوجي، حيث ان هذه المميزات أصبحت قريبة جدا، لا بل على تماس مع المميزات الفذّة، التي تمتّع بها الكتاب الورقي منذ قرون عديدة ولغاية اليوم.

أخيراً، حاولنا معرفة اذا كان هناك من امكانية للتعايش والمساكنة ما بين الكتابين.. أم ان هناك صراعاً من أجل البقاء لأحدهما على حساب الآخر.. توصلنا الى نتيجة مفادها ان الصراع مفتوح وان الغلبة للأقوى. ماذا نملك الآن في منازلنا، زجاجة حبر وريشة، أم جهاز كمبيوتر؟! الجواب على ما نعتقد سهل وواضح. ان الكتاب الرقمي هو المستقبل شئنا أم أبينا...لقد انتهى عصر الحجارة..لا لنقص في الحجارة، وسينتهي بالطبع عصر الكتاب الورقي لا لقلة الورق.. فويل لأمة لم تعرف الاستفادة من الحجر.. وتعاني أجيالها الأميتين: الأبجدية والحضارية...

خاتمة:

السؤال المطروح أخيرا، ما مستقبل البشرية والعالم والكتاب الورقي وسط هذا الكم الهائل من التكنولوجيا الحديثة؟ للاجابة عن هذا السؤال، نقول: «مواكبة التطور». هذا هو قدر البشرية وهذه هي سنّة التقدم.

بالواقع، منذ بداية التاريخ البشري والحضارة البشرية آخذة في التطور المطرد نحو المستقبل وبشكل دائم، فمن الحركات والاشارات والرسومات الى اللغة ثم الكتابة، والتي شكلت قفزة حضارية كبيرة ومهمة، اذ نقلت الانسان من اللاحضارة الى الحضارة، وتوالت الاختراعات بعدها، فمن الطباعة (ذلك الاختراع العظيم، الى الاختراعات الصناعية والعلمية، وصولا الى أيامنا الحاضرة مع التقنيات الحديثة والتي غيرت مختلف مناحي الحياة وبصورة مذهلة[٤٩].

(٤٩) فمن الطاقة الكهربائية الى القطار والسفن والسيارات والطائرات المدنية والحربية والصواريخ على اختلافها والأقمار الصناعية والاصطناعية، التلفزيون والسينما.. والهاتف وصولا الى الشيكات الالكترونية. والمستقبل يخبئ لنا الكثير من الاكتشافات الجديدة...بفعل حاجات الانسان المستجدة وبفعل سنّة التطور والتقدم الدائمين. فمن خير جليس كتاب..انتهينا اليوم الى مقولة: من خير جليس حاسوب!! هل لو كان أبو الطيب المتنبي يعيش في عصرنا ويجلس أمام الكمبيوتر،هل كان سيعيد نظم شعره على الوجه التالي: أعز مكان في الدنيا سرج سابح وخير جليس في الأنام كتاب (الكتروني!!) راجع: محمد حنفي، مرجع سابق، جريدة القيس ٢٠٠٧، أيضا،راجع ابراهيم حسن عثمان الذي قال «لقد تنبأ المتنبي بأن خير جليس في الأنام كتاب، ولقينا نحن بأن خير جليس في الأنام حاسوب»، مداخلة في مؤتمر من تنظيم، ندوة الدراسات الانمائية، مركز توفيق طبارة، بيروت، ٨ نيسان ٢٠١٠، بيروت.

فالانسان بالفعل ينطلق اليوم وبسرعة هائلة نحو غده المجهول، فنحن اليوم في عصر ما بعد الورق، ما بعد الكتاب، ما بعد الجامعة التقليدية.. في عصر النانوتكنولوجي...

فالعصر الرقمي لم يعد اختيارا للانسان، انما أصبح بمثابة الحقيقة الموجودة، والتي يجب التعامل معها مهما طال زمن تمنعنا. والتعامل مع هذا العصر يجب ان يتم باللغة التي يفهمها والتي يتقنها..والا سيحصل الصراع.. هذا الصراع ان حصل فهو حتما سيرتكز ارتكازا تاما على التقنية الرقمية...فهل نملكها نحن اليوم في العالم الثالث؟